عالمية الأدب الإسلامي، رسائل النور نموذجا

الملخص

أ.د. حسن الأمراني[1]

يلقي هذا البحث الضوء على النزعة الأدبية في رسائل النور مبرزا الروح الإبداعية التي تميز بها الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي مؤلف هذه الرسائل ومشيرا إلى أهم المؤهلات التي صنعت عالمية رسائل النور.

لقد استطاع بديع الزمان النورسي ان يكسب رسائل النور عالمية من خلال مخاطبته للإنسانية جمعاء محركا للفطرة ومركزا على القواسم المشتركة في الناس غير منشغل بالاختلافات ويعود ذلك حسب الباحث لما للإيمان من رؤية جمالية وشمولية تستوعب كل البشرية بل وكل الكائنات فتضفي عليها دوما المعنى والجمال.

كما بين الباحث دور اللغة العربية والتركية -وهي لغة رسائل النور- التي اكسبتها امتدادا وانتشارا جغرافيا واسعا ولا شك فهي من أكثر اللغات ثراء على وجه البسيطة فضلا عن أن الأستاذ عبر بها عن قضايا محلية تخص الأمة التركية ومنفتحة في الآن نفسه تستشرف بعدا إنسانيا وكونيا خاصة وأن القرآن الكريم كان منطقها ومنطلقها الرئيس.

ولم تكتسب رسائل النور عالميتها من فطرية الخطاب وإنسانيته والامتداد اللغوي الثري فحسب وإنما لتفرد الأستاذ وابداعه المتميز دور مهم حيث كان كالبحر نظما ونثرا وما تلك الصور الرائقة والنصوص البديعة المضمنة في رسائل النور وفي المثنوي العربي النوري على وجه الخصوص إلا شهودا عدولا على أدبية رسائل النور وتميزها الذي بلغ الآفاق.

الكلمات المفتاحية: رسائل النور، أدبية رسائل النور، الروح الإبداعية.

* * *

The Internationality of Islamic Literature: The Risale-i Nur as an Example

Abstract

Prof. Dr. Hasan al-Amrani

This research seeks to highlight the literary dimension in the Risale-i Nur. In fact, it demonstrates the creativity of Said Nursi, the author of the messages. It also shows the most important qualifications that formed the universality of the Risale-i Nur.

Bediuzzaman Said Nursi was able to ensure the universality of these messages which target humanity as a whole by touching on the innate notions and focusing on convergences between humans rather than being interested in divergences. This point –according to the researcher- refers to the global and aesthetic vision of faith, which absorbs all human beings, and that is what it constantly confers.

Furthermore, the researcher has demonstrated the major role of Arabic and Turkish languages –those of the Risale-i Nur– which granted them a huge geographical expansion and extension at the same time. In addition, the author has expressed in these languages local issues that deal with the Turkish community being at the same time opened to the whole world thanks to their universal and global dimension – chiefly that the Holy Quran exists within these messages as a major logic and essence.

The Risale-i Nur has consequently acquired its universality not only from the innate aspect of discourse (arguably through its humanism and lingual extension), but also from its crucial function of enlightening readers about the author, the unity of his writing style sweeping between poetry and prose and the richness of the iconic connotations he has used.

These aesthetic images generally implied, and especially in the Arabic Mathanawi al Nuriya–represent the literary nature of the Risale-i Nur, as well as its acute excellence beyond normal horizons.

Key words: literary of Riseli-Nur, creative spirit, Risale-i Nur.

* * *

يقال: الأسلوب هو الرجل.

إذا كانت هذه الكلمة صادقة، وكانت تنطبق على أحد، وهي صادقة من دون شك، فإنها تنطبق تماما على بديع الزمان النورسي، حتى إنه لا يمكن فهم الرسائل إلا بفهم حياة النورسي، ولا فهم حياة النورسي إلا بقراءة رسائل النور.

لقد عاش بديع الزمان حياة غنية وحافلة بالأحداث والتجارب، واكتسب من وراء ذلك خبرة وعلما وتجربة، بشكل متميز، ذلك بأنه كان يقرأ كل ذلك من خلال القرآن الكريم، وحين دوَّن خبرته في "رسائل النور" كان القرآن الكريم مبتدأها ومنتهاها، بشكل لم يسبق له مثيل.

وإن مما تمتاز به رسائل النور: "الشمولية"، وتلك الشمولية نابعة من شمولية فكر بديع الزمان من دون شك، ولكنها قبل ذلك نابعة من أنها جعلت القرآن الكريم مدارها، حتى إنه يمكن القول إن الرسائل ليست غير فيوض قرآنية، ولم يكن شيء من الصفات يرضي بديع الزمان النورسي أكثر من أن يقال عنه: "إنه خادم القرآن الكريم".

ولما كان القرآن الكريم معجزة بيانية أولا، لم يكن من المنتظر أن تظل البيانية بعيدا عن اهتمام النورسي ومشاغله، فإذا أضفنا إلى ذلك أن بديع الزمان قد أوتي حسا أدبيا رفيعا، وروحا شعرية عالية، عرفنا سر هذه الفيوضات الأدبية التي تزخر بها الرسائل. ولئن كان النورسي يقرر في أكثر من موضع من الرسائل أنه حُرم نعمة النظم، إلا أنه رزق روحا شعرية وأسلوبا بديعا يجعل كلامه من حاقّ الشعر، وذلك الأسلوب الشعري، بما اشتمل عليه من نداوة وطلاوة، وما تضمنه من تخييل وتمثيل وضرب الأمثال، صار ميسما لرسائل النور، وهو مما وهبها التفرد في التعبير مثلما وُهبت التفرد في التفكير، ويقوم "المثنوي العربي النوري" مثلا ناطقا على هذا.

وتلك الشمولية التي امتازت بها رسائل النور، وذلك الغرف المتواصل من القرآن الكريم، كان منطلق الرسائل إلى العالمية.

ولكن ما الذي يراد بالعالمية في الأدب، وفي رسائل النور على وجه الخصوص؟

إن كل أدب عالمي لا بد أن يتوافر على مجموعة من الخصائص، تجعله جديرا بأن يتجاوز حدود الزمان والمكان، وتجعله صالحا لمخاطبة كل إنسان. إن المتنبي مثلا أديب عالمي، لا لأن شعره عُني به الدارسون في الخافقين، من أوروبا إلى الهند، وترجم -أو ما ترجم منه- إلى كثير من لغات العالم فحسب، حتى إنه ترجم نظما إلى الألمانية، إذ تلك نتيجة وليست سببا، بل لقد كان عالميا لأن شعره اكتسب من الصفات ما يجعله كذلك. ولعله لم يوفق أحد إلى رصد تلك الصفات في كلمة واحدة مثل ما فعل ابن الأثير حين قال عن المتنبي، معللا سر شهرته: "إنه يتكلم عن خواطر الناس".

عادة ما يقال إن المتنبي شاعر ذاتي، ولكن الشاعر العظيم هو الذي يعرف كيف ينتقل من الذاتي المحدود إلى الإنساني المطلق.

ولقد زاوج بين هذا وذاك، في القرن العشرين، شاعر جمع بينه وبين النورسي أكثر من آصرة، هو شاعر الهند العظيم محمد إقبال، وأفصح عن ذلك بوضوح في ديوانيه: "أسرار خودي/أسرار

الذات" و"أسرار بي خودي/أسرار نفي الذات". محمد إقبال شاعر مفكر، أما بديع الزمان النورسي فمفكر شاعر.

ويمكن رصد أهم مميزات العالمية بصفة عامة، وربطها بأدب النورسي خاصة، فيما يلي:

1. الإنسانية

الإنسان هو هو في كل مكان، وفي كل زمان، خلقه الله تعالى وسواه بيده، وهداه النجدين، والرسول ρ يقول: (كل مولود يولد على الفطرة)، وهذه الفطرة لا تتبدل ولا تتغير إلا بالتدخل البشري والتوجيه، إما إلى الخير وإما إلى الشر، وهي دائما على استعداد للتوجيه، ومن يحسن مخاطبتها يملك أقطارها، والأدب الذي يعي هذه الحقيقة يخاطب في الإنسان هذه الفطرة التي هي قاسم مشترك بين الناس، فيجد صداه في النفوس على اختلاف أصحابها في القوميات واللغات والمعتقدات، فلذلك تجد المتنبي وشكسبير وطاغور ولوركا وتولستوي وهيكو وكوته وأضرابهم لا يغتربون حين ينتقلون من بلد لبلد، أو من لغة إلى لغة، ذلك بأنهم يخاطبون في الناس تلك المشاعر والعواطف المشتركة، فالحب والكراهية والفضيلة والرذيلة والإيمان والكفر، كقضايا شمولية مطلقة، هي من الأمور المشتركة بين الناس، بالرغم مما يتعلق بتلك القضايا من اختلاف مفهومي.

ولأن النورسي يجعل القرآن الكريم هاديه ودليله، حتى يصح أن يقال عنه إنه "الرجل القرآني"، ولأن القرآن الكريم جاء ليخاطب الناس كافة، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، ومعتقداتهم ومشاربهم، جاء أدب النورسي تبعا لذلك موجها للناس كافة. صحيح أن جوهر دعوة النورسي هي إنقاذ الإيمان، يقول: "إن أعظم إحسان أعده في هذا الزمان وأجل وظيفة، هو إنقاذ الإنسان لإيمانه والسعي لإمداد الآخرين بالقوة".[2] وإن المعنيين بهذا الخطاب أصلا هم أمة الإسلام، إلا أن النورسي لم يغب عنه أبدا أن يتوجه إلى المخالفين، سواء أكانوا من أهل الداخل، إذ شاع الإلحاد والدنيوية والدهرية بين عدد من المسلمين، ولا سيما المتعلمين منهم، أم كانوا من أهل الخارج، ولا سيما النصارى باعتبارهم أقرب الطوائف إلى المسلمين دارا، فهم جيرانهم، وأقرب الطوائف مذهبا أيضا بمنطوق القرآن الكريم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى﴾، المائدة:82 فلذلك كان النورسي مستعدا لمحاورتهم باستمرار، بل لقد كانت بينه وبين كبير قساوستهم "البابا" مراسلات دالة على الاحترام المتبادل.[3]

وإذا ما تأملنا رسائل النورسي، وجدنا رؤية النورسي تتجاوز الناس إلى سائر المخلوقات في الكون، ويجري معها تواصلا عجيبا، وما ذلك إلا لأن الإيمان وحده هو الذي يجدد رؤيتنا للأشياء، ويهبها معنى وجمالا.

"من نظر بنور الإيمان والتوحيد يرى العالم مملوءا نورا، وإنسية وتحببا وتوددا، وأجزاء الكائنات أودّاء إخوانا أحياء مونسين، وأما إذا نظر بالكفر يرى أجزاء العالم أعداء وأجانب أمواتا موحشين ويرى العالم ظلمات بعضها فوق بعض وهو في بحر مصطلم مظلم يغشاه موج من فوقه موج، إذا أخرج يده لم يكد يراها".[4]

ولنستمع إلى بديع الزمان في "رسالة تستنطق النجوم":

"كنت يوما على ذروة قمة جبل "جام" نظرت إلى وجه السماء في سكون الليل، وإذا بالفقرات الآتية تخطر ببالي، فكأنني أستمع خيالا إلى ما تنطق به النجوم بلسان الحال. كتبتها كما خطرت دون تنسيق على قواعد النظم والشعر لعدم معرفتي لها. وقد أخذت إلى هنا من المكتوب الرابع، ومن ختام الموقف الأول من الكلمة الثانية والثلاثين".

"واستمع إلى النجوم أيضا، إلى حلو خطابها اللذيذ

لترى ما قرره ختم الحكمة النير على الوجود.

* * *

إنها جميعا تهتف وتقول معا بلسان الحق:

نحن براهين ساطعة على هبة القدير ذي الجلال.

* * *

نحن شواهد صدق على وجود الصانع الجليل وعلى وحدانيته وقدرته. نتفرج كالملائكة على تلك المعجزات اللطيفة التي جملت وجه الأرض.

* * *

فنحن ألوف العيون الباصرة تطل من السماء إلى الأرض وترنو إلى الجنة. نحن ألوف الثمرات الجميلة لشجرة الخلقة، علقتنا يدُ حكمة الجميل ذي الجلال على شطر السماء وعلى أغصان درب التبانة.

* * *

فنحن لأهل السماوات مساجد سيارة ومساكن دوارة، وأوكار سامية عالية ومصابيح نوارة.

وسفائن جبارة، وطائرات هائلة!

* * *

نحن معجزات قدرة قدير ذي كمال وخوارق صنعة حكيم ذي جلال، ونوادر حكمة ودواهي خلقة وعوالم نور.

* * *

هكذا نبين مائة ألف برهان وبرهان، بمائة ألف لسان ولسان، ونسمعها إلى من هو إنسان حقا.

عميت عين الملحد لا يرى وجوهنا النيرة، ولا يسمع أقوالنا البينة... فنحن آيات ناطقة بالحق.

* * *

سكتنا واحدة، طرتنا واحدة، مسبحات نحن عابدات لربنا، مسخرات تحت أمره. نذكره تعالى ونحن مجذوبات بحبه، منسوبات إلى حلقة ذكر درب التبانة".[5]

أليس خطاب الفطرة هذا هو الذي نجده عند كبار شعراء الروح من أمثال طاغور الهندي وكوته الألماني وبوشكين الروسي، مع خاصية بينة عند النورسي، وهي هذا المدد القرآني الذي نحس به في كلامه، وهذه الكلمات الربانية التي تضفي على أسلوب البديع بهاء ورونقا متميزين؟. وتتجلى تلك الإنسانية عند البديع أيضا في ذلك الحضور المستمر لدرجة التكريم الإلهي للإنسان، يذكرنا به في عرض الرسائل، ويستحضره ويصدر عنه: "اعلم أن مفتاح العالم في يد الإنسان وفي نفسه، فالكائنات مع أنها مفتحة الأبواب منغلقة، فالحق سبحانه أوجد من جهة الأمانة في الإنسان مفتاحا يفتح به كل أبواب العالم، وطلسما يفتح به كنـز خلاق الكون. والمفتاح ما فيك من "أنا"، إلا أن "أنا" أيضا معمى مغلق، ومطلسم منغلق، فإذا فتحت "أنا" بمعرفة ماهيته الموهومة انفتح لك الكائنات".[6]

وهذه الرؤية التي تجسد العالمية بمراعاة الإنسان على اختلاف مشاربه وقدراته وتوجهاته، إنما استمدها النورسي من القرآن الكريم، وهو الذي نص على "أن آيات القرآن الكريم مبنية على أساليب اللغة العربية، وبوجه يفهمه عموم الناس بظاهر النظر، لذا كثيرا ما بينت المسائل بالتشبيه والتمثيل"،[7] ويصدق هذا المنهج قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.[القمر:32]

ولكن حديث النورسي لم يكن نظريا فحسب، بل قدم نماذج أدبية رفيعة من الأدب، تجد ذلك في ثنايا رسائله، إلا أنه أفرد لذلك الأدب الإنشائي سفرا كاملا، هو "المثنوي العربي النوري"، وهو نواة الرسائل ومشتلها، كما يقول عنه هو نفسه، وواضح أنه استلهم مثنوي جلال الدين الرومي. والفرق بين الرجلين أن الرومي قد بنى ديوانه نظما، في حين أن النورسي آثر أن يقدم المثنوي العربي نثرا، وهذا يطرح إشكالا واضحا من حيث التسمية، وهو: "لِمَ سمى بديع الزمان كتابه "المثنوي"، والحال أن الرومي حين اختار هذه التسمية فلأنها تستجيب للشكل الشعري/النظمي الذي بنى عليه عمله، وهو هذا الوزن الشعري الذي اشتهر به الفرس خاصة، وهو أن يصوغ الشاعر الأبيات، من حيث القافية،

مثنى مثنى، أي إنه يبني القافية بيتين بيتين، وهو ما التزم به جلال الدين. فما السر وراء تسمية البديع عمله المثنوي إذن؟ لقد تولى الإجابة عن هذا الإشكال الأستاذ قاسم الصالحي، خادم رسائل النور ومترجمها إلى العربية، فقال: "أما ما يرد من سؤال حول تسمية الكتاب. أي: لماذا سماه الأستاذ المؤلف بـ "المثنوي" الذي يعني في الشعر أبيات مثنى مثنى، علما أن الكتاب ليس ديوانا للشعر؟ فالجواب: لقد سمى الأستاذ النورسي هذه الرسائل بـ "الرسائل العربية" أو "المجموعة العربية" وقد كتب على مجلد الطبعة الأولى: "قطرات من فيوضات الفرقان الحكيم". ولكن لأن فعل هذه الرسائل في القلب والعقل والروح والنفس يشبه فعل المثنوي لجلال الدين الرومي المشهور والمتداول بين أوساط الناس ولا سيما في تركيا، وأن عمله في تجديد الإيمان وترسيخه في القلب وبعثه الروح الخامد في النفوس يشبه "المثنوي الرومي" فقد سماه الأستاذ النورسي بـ "المثنوي". ولأجل تمييزه عن "المثنوي الرومي"؛ الذي كتب بالفارسية، سماه: "المثنوي العربي". ولأنه أساس لرسائل النور وغراس لأفكارها ومسائلها أضيف إليه "النوري" فأصبح الكتاب يحمل عنوان: "المثنوي العربي النوري".[8]

ولعل بعضنا أن يظن أن كتابة "المثنوي العربي النوري" نثرا نقص من قيمة الكتاب الشعرية، والحال أن العكس هو الصحيح. فالشعر يقوم على النظم، والنظم خاص بكل لغة، والشعر العربي بخاصة كان الوزن فيه شرطا، والقافية واجبا، وكانت بعض الأمم تكتفي بأوزان مخصوصة دون القافية، وعلى ذلك درج معظم شعر أوروبا زمنا، حتى إنه ليظن أن القافية بتلويناتها وتعقيداتها ليست غير أثر من آثار الشعر العربي، يوم أن كان للعربية في غرب أوروبا سلطان.

2. الامتداد اللغوي

قد يظن أن العالمية لا تصيب غير الآداب التي تتخذ أداة للتعبير لغة واسعة الانتشار، والحال أن عددا من الأدباء العالميين صاغوا أدبهم في لغات محلية محدودة الانتشار، واستطاعت هذه الآداب تجاوز الحدود الجغرافية وتخترق الآفاق لتصبح عالمية، فالألبانية مثلا والبنغالية والتترية والبهسة الإندونيسية ليست من اللغات الواسعة الانتشار، ولكنها أنتجت لنا أدبا عالميا، وهذا طاغور على سبيل المثال يقوم شاهدا على ذلك، في اللغة البنغالية، والأمير حمزة الإندونيسي في لغة البهسة، كما نجد من الآداب العالمية ما كتبه أصحابها بلغات محلية، وفي عهد الاتحاد السوفياتي اختار عدد من أدباء الشعوب المنضوية قهرا تحت ذلك الاتحاد التعبير بلغاتهم المحلية مثل التترية والأذربيجانية والأوزبكية وغيرها، واستطاع أدب جنكيز ضاغجي، ورسول حمزاتوف، على سبيل المثال، أن يصل إلى الناس ويتجاوز الحدود، ولكن من المؤكد أن ذلك الأدب ما كان ليبلغ ما بلغ لولا سببان: أولهما ذاتي داخلي وهو ما يكتسبه ذلك الأدب من قيم ذاتية يجعله قادرا على أن يلفت الناس إليه،

والآخر موضوعي خارجي، وهو أنه قد أتيح لذلك الأدب من يترجمه وينقله من دائرة اللسان المحدود إلى ألسنة واسعة الانتشار، مما يتيح له بعد ذلك الانتشار الجماهيري الواسع.

أما أدب النورسي فقد أتيح له بدءا أن يصب في لغتين من أعظم اللغات العالمية غنى وانتشارا، وهما العربية والتركية. فالعربية التي كتب بها بديع الزمان عددا من مؤلفاته، لعل أهمها عندي: "المثنوي العربي النوري"، هي اللغة التي كان يقول عنها المستشرقون في القرن التاسع عشر: "إنها اللغة التي إن تعلمتها استطعت أن تقطع آسيا من تركيا إلى الهند دون مترجم"، والتركية، العثمانية، التي دوّن بها النورسي القسط الأعظم من رسائل النور، كانت وما تزال لغة عدد كبير من شعوب آسيا الوسطى، الممتدة إلى حدود الصين، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الله تعالى قيَّض لهذه الرسائل من الطلبة والمريدين والمحبين من يقوم بترجمتها إلى لغات حية أخرى، وعلى رأسها اللغة الأكثر انتشارا في العالم اليوم، وهي الإنجليزية، استطعنا أن نطمئن إلى أن رسائل النور هي اليوم من أكثر الآثار الفكرية والأدبية انتشارا في العالم.

3. المحلية المنفتحة

يخطئ بعض الناس حين يظن أن الطريق إلى العالمية يمر عبر التنكر للقضايا المحلية، والسعي إلى طرق موضوعات وأغراض عامة وقضايا عامة، ولا سيما السياسية منها، ولقد لهج كثير من أدباء الواقعية الاشتراكية في العالم العربي، في النصف الأول من القرن العشرين، بموضوعات تتحدث عن معاناة العمال وقضاياهم في بولونيا أو تشيكوسلوفاكيا أو غيرهما من بلدان المعسكر الشيوعي، غير ملتفتين إلى أهم ما يجري على أرضهم ظنا منهم أن ذلك هو الطريق إلى العالمية... والحال أن بعض أولئك نال جوائز تقديرية، ولكنه لم ينلها لقيمة أدبية بقدر ما نالها لموقف سياسي. إن كل أديب عظيم إنما ينطلق في أدبه من قضايا أمته المحلية، ثم هو يسعى بعد ذلك، وربما على غير قصد منه، إلى أن يعطي تلك القضايا بعدا إنسانيا منفتحا... ألا نشم رائحة غرناطة في أشعار لوركا ومسرحياته؟ ألا نستطيع معرفة أزقة باريس وحاراتها وحياة الناس فيها من خلال "البؤساء" و "أحدب نوتردام" لفكتور هيكو؟ ألم ينقل إلينا غابرييل غارسيا ماركيز حكايات وأساطير كولومبيا؟ ألم نعرف زقاق المدق وبين القصرين وحارات القاهرة من خلال أعمال نجيب محفوظ؟ ألم ينقل إلينا باكثير في مسرحياته وروايته تاريخ مصر القديم، ومصر الإسلامية؟ ولكن كل أولئك صاغوا أدبهم صياغة بارعة تعرف كيف تجعل المحلية طريقا إلى ما هو عالمي وإنساني.

ولقد عالج النورسي في أدبه وفكره قضايا هي من صلب قضايا الأمة الإسلامية، وكان في كثير من الأحيان ينطلق في المعالجة من واقع تركيا نفسها، ليعانق بعد ذلك ما هو أرحب وأوسع. فهو حين يتحدث عن أنظمة الحكم وفساد كل نظام يقوم على الجور ويناقض الفطرة، يبدأ بضرب الأمثال من واقع تركيا نفسها، ولم يكن حديثه تجريدا أو تهويما أو خيالا، وهذا هو الذي جعله يقضي معظم حياته

متنقلا من معتقل إلى معتقل، ومن منفى إلى منفى، معتبرا ما يعانيه حكمة إلهية، وهو يقول في ذلك: "إن حكمة واحدة لعدالة القدر الإلهي في سوقنا إلى المدرسة اليوسفية لـ "دنيزلي" هو حاجة المسجونين فيها وأهاليها وربما موظفيها ومأموري دائرة العدل، إلى رسائل النور وإلى طلابها أكثر من أي مكان آخر. وبناء على هذا فقد دخلنا امتحانا عسيرا بوظيفة إيمانية وأخروية".[9]

إن الانطلاق مما هو محلي إلى ما هو إنساني عالمي، هو من أهم مميزات رسائل النور، والمنطلقات القرآنية في الرسائل تزيد هذا التوجه بيانا، إذ ليست الرسائل غير فيوضات من القرآن، وذلك أمر طالما ردده النورسي في عدد كبير من المواضع في الرسائل. يقول على سبيل المثال فيما يخصّ الكلمات: "إن الحقائق والمزايا الموجودة في "الكلمات" ليست من بنات أفكاري ولا تعود أبدا إلى وإنما للقرآن وحده".[10] وهذا هو الذي يجعل بديع الزمان مطمئنا إلى أن أدبه لن يكون منحصرا محدودا في الزمان ولا في المكان، ولا موجها إلى طبقة دون طبقة ولا فئة دون فئة، لأنه أدب قرآني. وشتان ما بين الأدب القرآني والأدب الأوروبي الذي يراه كثير من أبناء الإسلام نموذجا. يقول النورسي في ثقة: "لا تبلغ يد الأدب الغربي ذي الأهواء والنـزوات والدهاء.. شأن أدب القرآن الخالد ذي النور والهدى والشفاء".[11]

ولا يعني هذا الكلام أن النورسي كان عدوا للغرب على الإطلاق، أو أنه يريد أن ينتقص منه بغير وجه حق، كلا ! لم يجعل النورسي بينه وبين حضارة الغرب حجابا مستورا، يجعله يرفض كل ما يأتي من الغرب، بل هو مطلع على تلك المدنية وأسرارها، ولكن تعامله معها كان تعامل الناقد البصير، لا تعامل الصدي الظمآن المنبهر بآلها، وعلى هذا لا يكون الأخذ عن الغرب محظورا، إلا أن ذلك الأخذ ينبغي أن يحاط بشروط، أهمها عرض الفكر والأدب الوارد على الشريعة، ومصفاة الإيمان: "إن نهر العلوم الحديثة والثقافة الجديدة الجاري والآتي إلينا من الخارج كما هو الظاهر، ينبغي أن يكون أحد مجاريه قسما من أهل الشريعة كي يتصفى من شوائب الحيل ورواسب الغش والخداع، لأن الأفكار التي نمت في مستنقع العطالة، وتنفست سموم الاستبداد، وانسحقت تحت وطأة الظلم، يحدث فيها هذا الماء الآسن العفن خلاف المقصود، فلا بد إذن من تصفيته بمصفاة الشريعة".[12]

إن مما يزيد أدب النورسي وفكره قيمة، ويجعله متصلا بالإنسان حيثما كان، هو عنايته بالقضايا الكونية التي تهم الإنسان في المبدأ والمنتهى والمنشأ والمصير.

4. التفرد

فحول الشعر ونحارير الكتابة كثيرون في كل أمة، ولكنك لن تجد منهم نموذجا يتكرر، فسر الخلود هو التفرد.. التفرد في عنصر أو عناصر من مكونات الكتابة.. هنالك في الأدب العربي مثلا امرؤ القيس وحسان وأبو تمام والمتنبي والمعري والمجنون وشوقي ونـزار قباني.. ولكنك لن تجد

أكثر من حسان واحد.. أو متنبي واحد... أو نـزار واحد.. كل الذين سعوا إلى التقليد والاستنساخ سقطوا وتلاشوا.. فالناس بحاجة دائما إلى الأصل، لا إلى النسخة... ولذلك لم يوفق أولئك الذين قالوا عن ابن هاني أو ابن دراج متنبي المغرب، ولا عن ابن خفاجة أو ابن زيدون بحتري المغرب... فالمتنبي واحد، والبحتري واحد، وابن دراج كذلك، وابن زيدون.. تلك صفات لم تزد شعراء الغرب الإسلامي شيئا، وربما أساءت إليهم أكثر مما أحسنت... وما قيل عن شعراء العرب وأدبائها يقال عن سواهم.. فبوشكين وتولستوي وطاغور وإقبال وشكسبير وبايرون وهيكو، ولامارتين وبالزاك ومحفوظ وملتون وعاكف... كل أولئك كانوا متفردين متميزين... وذلك سر بقاء أدبهم... عرف شكسبير بأن له قدرة فائقة على تحليل الشخصيات وتقمص دقائقها والغوص في أغوارها حتى إن بعضهم قال: لكأن شكسبير مارس كل المهن، لقدرته على استجلاء خصائص كل طبقات المجتمع، فهو النبيل والشعبي والساذج والعبقري والماكر والطيب، بل هو الرجل والمرأة.. وتولستوي وهو المنتمي إلى طبقة النبلاء وفق في التعبير عن قضايا الطبقات الدنيا، حتى تحدث نقاد الواقعية الاشتراكية عن الانتحار الطبقي في أدب تولستوي، في مقابل التسلق الطبقي عند سواه... ومحمد إقبال هو الشاعر الذي عبر عن تطلعات الشعب المسلم في القارة الهندية بأسلوب يجمع بين البساطة والعمق، فهو مفكر فيلسوف، تحتاج منك كتابته الفكرية والفلسفية إلى كثير من الجهد، وإلى اطلاع واسع على الثقافة العالمية، وفي مقدمتها الثقافة الغربية، والألمانية والإنجليزية منها على وجه الخصوص، إلا أنه في شعره يسوق إليك الحكمة التي تسري هونا إلى النفس، فلا تمتنع عن الطبقات المتوسطة، ولذلك ظلت الجماهير المسلمة في شبه القارة الهندية تتغنى بشعره حتى الآن... وظلت قصيدته "دعاء طارق" تسري على كل لسان...

أما بديع الزمان فيكمن تفرده في أنه كالبحر، يأتيه العاشق الحزين فيسليه ويجد عنده بغيته، ويعلمه الفرق بين ألم الفقد وألم الفراق.. بين الحزن الهادئ الرفيق والحزن العاتي المدمر... ويأتيه المفكر المتأمل فيجد عنده بغيته... ويعلمه كيف يستل الحكمة من نشيد العندليب، وصمت البحر وصخبه، وحباب الشمس على صفحة المياه المتلألئة.. تبحث عن لآلئ البحر فيغنيك... وتسعى إلى كشف أغوار البحر وأسراره فيرضيك.. وهو في كل ذلك بأخذ بيد قارئه في رفق إلى ميناء السلام... ومرفأ الإيمان... وكنوز القرآن التي منها يغرف، وبها يسعى، وإلى أفيائها يأوي ويستظل...

ومن مظاهر هذا التفرد أنه لا يعلن لك أنه يكتب أدبا أو شعرا، بل هو يعلن في تواضع جم أنه حُرم من نعمة النظم، إلا أنه لم يحرم من دفقة الشعر وزلاله، بل إن آلته أصلا آلة أدبية بيانية، كيف لا وهو يعتبر نفسه خادم القرآن الكريم، والقرآن الكريم معجزته البيان؟

ويزيد من القيمة الأدبية للرسائل أن صاحبها يجمع بين التنظير والتدقيق، فهو ناقد منظر بامتياز، على علم بطبيعة الأدب السائد في عصره، في الشرق والغرب، فهو يدعو إلى تجديد الأدب على بصيرة، وهو يدعو إلى أدب يلتقي فيه روافد الأدب العالمي، بعدما تصفى بمصفاة الشريعة.

إن التجديد الأدبي عند بديع الزمان، خلافا للمذاهب الأدبية السائدة، لم يكن استنساخا للتجربة الأدبية الغربية، بقدر ما كان نقدا للغرب. وقد كان هذا النقد، وما تلاه من تأسيس رؤية جديدة للأدب، نابعا من معاشرة القرآن الكريم، والاستغناء بأدب القرآن عما سواه.

لقد استطاع النورسي بناء على ذلك أن يقدم تصورا واضحا عن الأدب الصحيح، يقوم على استلهام القرآن الكريم معنى ومبنى، فلذلك نراه يكثر من اقتباس أدوات الأسلوب القرآني، كضرب الأمثال والإكثار من التشبيهات..

وعلى هذا فالشعر إذا ترجم ضاع كثير من بهائه ورونقه، وهذا أمر نبه عليه شيخ نقاد العربية الجاحظ، فقال: "وقد نقلت كتب الهند، وترجمت حكم اليونانية، وحولت آداب الفرس، فبعضها ازداد حسنا، وبعضها ما انتقص شيئا، ولو حولت حكمة العرب، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن، مع أنهم لو حوَّلوها لم يجدوا في معانيها شيئا لم تذكره العجم في كتبهم، التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم. وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها".[13]

وعلى هذا فإذا كان نقل نص من لغة إلى لغة، في العلم والحكمة والفلسفة صعبا، فهو في الشعر أصعب، إن لم يكن ضربا من المستحيل، إذ الشعر ليس معاني فحسب، بل هو بناء صوتي معقد، وهيهات أن ينقل شيء من ذلك، ها نحن نرى أن جلال الدين من كبار شعراء الفارسية، وديوانه (المثنوي) طبقت شهرته الآفاق، ونحن نقرؤه مترجما إلى العربية، فلا نجد له ذلك البهاء الذي نجده في الأصل الفارسي، بل لا يكاد يبقى منه إلا بقدر ما قدرت اللغة على حمله من المعاني، وبقدر براعة المترجم، وها نحن نرى الفرق الجلي بين عدد من ترجمات رباعيات عمر الخيام، مع أن الإجماع قائم على عظمة شعرية هذه الرباعيات، وهكذا يكون بديع الزمان النورسي ملهما حين وضع المثنوي العربي النوري نثرا جميلا لا يتخلى عن بيان الشعر وتصويره، ولكنه لا يتقيد بأوزان الشعر وضروراته، حتى إذا نقل من لغة إلى لغة، لم يذهب بيانه، ولم يغض إشراقه، ولم تضمر معانيه، التي عسى أن تكون ملفوفة في غلالة من البيان.

هكذا إذن يكون النورسي قد قدم لنا، تصورات إسلامية عن الأدب، كما قدم نصوصا إبداعية متميزة تدخل في نطاق الأدب الكوني، من الباب الواسع، وتحقق عالمية الأدب الإسلامي.

* * *

الهوامش

[1] الأستاذ الدكتور حسن الأمراني، جامعة محمد الأول، وجدة المغرب.
[2] سيرة ذاتية، بديع الزمان النورسي، ص 368.
[3] انظر سيرة ذاتية، ص 439.
[4] المثنوي العربي النوري، بديع الزمان النورسي، ص 327.
[5] الكلمات، النورسي، ص 246، 247.
[6] المثنوي العربي النوري، النورسي، ص 327-328.
[7] اللمعات، النورسي، ص 162.
[8] مقدمة المثنوي، ص 78.
[9] سيرة ذاتية، ص 349.
[10] سيرة ذاتية، ص 237.
[11] الكلمات، ص 884.
[12] صيقل الإسلام، ص 530.
[13] الحيوان 75/1.